المَحَجّة | العدد السابع والعشرون ٢٠١٣

مجلّة تُعنى بشؤون الفكر الدينيّ والفلسفة الإسلاميّة

المشرف العامّ	شفيق جرادي	
رئيس التحرير	محمود يونس	
إدارة التحرير	باسمة دولاني	عليّ الرضا رزق
المدير المسؤول	بدري معاوية	
الهيئة العلميّة	أحمد ماجد	عليّ يوسف
	حبيب فياض	عليّ الموسوي
	حسين إبراهيم	محمّد زراقط
	سمير خير الدين	مصطفى الحاجّ عليّ
الهيئة الاستشاريّة	غلام رضا أعواني	جاد حاتم
	نادر البزري	محمّد تقي السبحاني
	سعاد الحكيم	محمّد مصباحي
إخراج فنّيّ	IDEA CREATION	

رسالة معهد المعارف الحكميّة: معهد المعارف الحكميّة [للدراسات الدينيّة والفلسفيّة] مؤسّسة بحثيّة تعليميّة، تنشط في الحقل الفكريّ من أجل توفير حضور فاعل في الوسط العلميّ والثقافيّ، وتجسير التواصل بين الاتّجاهات الدينيّة والفكريّة، من خلال الدراسات المعمّقة والتعليم التخصّصيّ، والأنشطة والنشر.

ضوابط النشر في مجلّة المحجّة: تنشر المحجّة الأوراق العلميّة والمقالات الفكريّة التي تتحقّق فيها الأصالة بحيث لا تكون قد نشرت سابقًا، أو مقدّمة للنشر في مكان آخر؛ تتولّى الهيئة العلميّة في المجلّة تحكيم المواد المقدّمة وترجيحها، على أن تبقى أسماء المحكّمين والكتّاب غير معلنة؛ يحقّ لإدارة التحرير إجراء التعديلات المناسبة على البحث بشكل منفرد أو بالاتّفاق مع الباحث؛ تُرفق جميع المساهمات بملخّص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة، ولا يتمّ قبول الأبحاث التي لا تستوفي الشروط المبيّنة أعلاه. وتحتفظ دار المعارف الحكميّة بكامل حقوق الطبع والنشر للموادّ التي يتمّ نشرها في المجلّة.

ما يُنشر في المجلّة يعبّر عن رأي صاحبه ولا يعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة.

تُرسل الاشتراكات والمراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

معهد المعارف الحكميّة (للدراسات الدينيّة والفلسفيّة)

لبنان - الحدث - سانت تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك C - الطابق الثالث

أو على رقم الحساب: بنك عودة 59129946100206401

almahajja@shurouk.org

00961-5-462191 / 00961-1-544622/1

ISSN: 2224-1094

اللاهوت الطبيعيّ ومعرفة اللّه الوجوديّة
إشكاليّة الوحي في لاهوت رودولف بولتمان

أنطوان فليفل[1]

في حين تسترسل تيّارات لاهوتيّة وفلسفيّة مسيحيّة، وغير مسيحيّة، بالكلام عن اللاهوت الطبيعيّ، أي معرفة الله عبر الخليقة، أو العقل، يعارض رودولف بولتمان هذا التوجّه أشدّ معارضة، وقد استنبط لاهوته، الأمين لفكر المصلح مارتن لوتر (١٤٨٣–١٥٤٦)، متأثّرًا بفلسفة مارتن هايدغر (١٨٨٩–١٩٧٦) الوجوديّة، وملازمًا اللاهوت الجدليّ[2]. وهو يعتقد أنّه من المستحيل للإنسان معرفة الله بقدرته الخاصّة، أو من خلال التأمّل بالطبيعة أو التاريخ، وهما يحملان سمة رفض الله. فالله لا يتجلّى عبر الفكر، أو مجرى التاريخ، أو الخلق، بل يفصح عن ذاته بذاته في وجود الإنسان، في تاريخيّته Geschichtlichkeit الخاصّة.

المفردات المفتاحيّة: رودولف بولتمان؛ اللاهوت الجدليّ؛ اللاهوت الطبيعيّ؛ الوحي؛ الإيمان؛ الثقة؛ الرجاء.

المعطى اللاهوتيّ التاريخيّ المتعلّق بمسألة الوحي

يقوم رودولف بولتمان[3]، في محاضرة له بعنوان «مفهوم الوحي في العهد الجديد»[4] بتحرّ

(١) أستاذ الفلسفة واللاهوت في جامعة ليل الكاثوليكيّة، فرنسا.

(٢) تيّار لاهوتيّ تبلور على إثر الحرب العالميّة الأولى (١٩١٤–١٩١٨) في عالم الإصلاح، ويعدّ، بشكل أساس، ردّة فعل على اللاهوت الليبراليّ أرادت التأكيد على تعاليم الإصلاح البروتستانتيّ الأساسيّة. رفض هذا التيّار كلّ شكل من أشكال معرفة الله من خلال الطبيعة، وأصرّ على استحالة معرفته إلّا من خلال وحيه عن ذاته انطلاقًا من ذاته. من أهمّ ممثّلي هذا التيّار، كارل بارت (١٨٨٦–١٩٦٨) وإيميل برونّر (١٨٨٩–١٩٦٦).

(٣) (١٨٨٤–١٩٧٦) لاهوتيّ وعالم كتاب مقدّس، لوتريّ ألمانيّ. درّس العهد الجديد لثلاثة عقود في جامعة ماربورغ. تعتبر كتاباته، ومنها **تاريخ التقليد الإزائيّ** *Die Geschichte der synoptischen Tradition*، من أشهر المراجع في الدراسات الكتابيّة النقديّة. وله نظريّات بالغة الأهمّيّة في علم اللاهوت الحديث، وأهمّها تلك المتعلّقة بنزع الأسطورة Entmythologisierung عن **الكتاب المقدّس** بهدف إدراج بشارة يسوع الناصريّ في سياقها التاريخيّ لتحديد جوهر رسالته.

(٤) R. Bultmann, "Der Begriff der Offenbarung im Neuen Testament," in *Glauben und Verstehen* (Tübingen:

سريع حول المعطى التاريخيّ المتعلّق بمفهوم الوحي من أجل تحديد المفاهيم التي يبغي نقدها. وهو لا يوجّه رفضًا مطلقًا لأيّ من المفاهيم المعروضة، بل يبيّن أنّها جزء من مفهوم الوحي، مع أنّها عاجزة عن التعبير عنه بشكل ملائم تمامًا.

لا يدرج بولتمان الألفيّة الأولى ضمن بحثه، وهو يبدؤه مع اللاهوت الكاثوليكيّ القروسطيّ الذي يتبلور حول إشكاليّة العلاقة بين العقل والوحي، وهو لا يعتبرهما ماهيّتَين ذواتي طبيعتَين مختلفتَين، بل مستويَين، أو نسقَين، للإبلاغ عن محتوًى معرفيّ. وينظر هذا اللاهوت إلى محتوى الوحي المعرفيّ كمحتوًى يتجاوز المعرفة العقليّة. ولكن، في كلتا الحالتَين، للعقل والوحي محتوًى معرفيّ يمكن القبض عليه وإبلاغه. ونتيجةً لذلك، يمكن اعتبار (١) الإنسان كائنًا محدودًا بما يمكنه معرفته، و(٢) الوحي إبلاغًا لعقيدة ولمحتوًى معرفيّ، و(٣) قدرات الإنسان المعرفيّة أسمى إمكانيّة لكيانه. لا شكّ في أنّ الوحي يظهر من ضمن هذا المنطق كحقيقة تتخطّى حدود الإنسان، بحيث إنّ أصلها إلهيّ، ولكنّ بولتمان يعارض فكرة اعتبار حدود الإنسان في إمكانيّاته المعرفيّة. فلا يمكن لله أن يكون مادّةً معرفيّةً – كما تحاول إثباته «الأدلّة على وجود الله».

وقد حصل مع الإصلاح البروتستانتيّ تحوّل جوهريّ حول المسألة. فأسمى إمكانيّة للإنسان لم تعد المعرفة، بل الثقة بكلمة مغفرة الخطايا *fiducia*. ولكنّه لم يتمّ تناول مفهوم الوحي انطلاقًا من هذا التحوّل، فبقي تحت تأثير اللاهوت الكاثوليكيّ القروسطيّ.

أمّا مذهب العقلانيّة، فقد أحدث تطوّرًا مهمًّا من خلال رفضه اعتبار إمكانيّات الإنسان المعرفيّة حادّةً له. فمع هذا المذهب الذي يقرّ بقدرة الإنسان على معرفة كلّ شيء، لم يعد للإنسان حدود، ولم يعد لفكرة الوحي معنًى، ذلك أنّ الوحي أضحى «طبيعيًّا». ولكنّ هذا الأمر متناقض، بحسب بولتمان، مع عمق مفهوم الوحي، وهو حتمًا «فائق الطبيعة».

وعلى عكس مذهب العقلانيّة، لا ينظر المذهب المثاليّ الرومانسيّ إلى الوحي كمعطًى في العالم، كما لا يعتبر إدراكه ممكنًا من خلال معرفة العالم العقلانيّة. فيضحى الوحي تجلّيًا «للروح». ولذلك، لم يَعُد الوحي يعتبر مع هذا المذهب «فعلًا تجريبيًّا»، ولكن بات كـ«الروح الذي يتجلّى عبر الأفعال». ينظر بولتمان بإيجابيّة إلى هذا التيّار من منطلق أنّه يحافظ على سموّ الوحي، ولكنّه ينتقد فهمه لإدراك الوحي بحيث يقضي بأن يعود الإنسان إلى ذاته لاكتشاف الله الكامن فيه (*Deus in nobis*). وهذا أمر يرفضه اللاهوتيّ الألمانيّ الذي يعتبر أنّ الإنسان، بهذا الفعل، بحالة هرب من وجوده الزمنيّ.

Mohr, 1960), pp. 1-34.

وفي مواجهة مذهب العقلانيّة، يتكلّم بولتمان عن مفهوم آخر للوحي يعتبر أنّ حياة الإنسان لغز، ما يجعل الوحي مسألةً لاعقلانيّةً، أو خشوعيّةً. يقرّ اللاهوتيّ بأهمّيّة هذا التوجّه من حيث إنّه لا يحدّ الإنسان بالمعرفة العقليّة، ومن جهة أنّ اللاعقلانيّة والخشوعيّة تساعدان الإنسان على طرح سؤال الوحي، وتجعلانه في حالة الاحتياج والانفتاح. ولكن لا يمكن للوحي وللحديث عن الله أن يتطابقا مع اللاعقلانيّة والخشوعيّة. فعندما يحاول الإنسان مساءلة الإلهيّات بحسب هذا المنهج، فهو، في الواقع، لا يسائل إلّا ذاته.

يُعدّ اللاهوت اللبرالي من آخر التيّارات التي ذكرها بولتمان، وهو يراه مركّبًا من المذهب العقلانيّ ومن المذهب المثاليّ الرومانسيّ. ولكن، على عكس هذا الأخير، يعتبر اللاهوت اللبرالي أنّه بالإمكان ملاحظة القدرة الخالقة، والتأكّد منها، كمعطًى من العالم ومن التاريخ. وعليه، يظهر الإنسان كخالق. أمّا الأعمال الأخلاقيّة، والظواهر الثقافيّة، ومسيرة التاريخ من الظلمات إلى النور، فتظهر كوحي. وما يجب الإشارة إليه في هذا النوع من التفكّر هو وجود إدراك دائم للوحي كواقع يحطّم حدود الإنسان. فخبرة اكتشاف الحسن، والحقّ، والجمال، تقتلع الإنسان من حدوده، وتضعه في خضمّ حياة أسمى، ألا وهي الحياة الإلهيّة.

لكلّ هذه التيارات جامع مشترك، بحسب بولتمان، وهو اعتبارها الإنسان كائنًا محدودًا يمكنه، من خلال الوحي، البلوغ إلى كيانه الحقيقيّ، لأنّ الوحي يحطّم حدوده. وما يميّز هذه النظرات المختلفة بعضها عن بعض هو فهمها للإنسان، ولحدوده، ولأصالته. وهنا يسأل بولتمان: أين تكمن حدود الإنسان؟ هل بما يمكنه معرفته، أو بفرديّته، أو بالحياة وخبراتها؟ لربّما شكّلت تلك المعطيات كلّها حدودًا للإنسان، ولعلّه ثمّ محتوًى معرفيّ للوحي، أو حتّى أعمال أخلاقيّة، أو ثقافيّة، أو خبرات يجب النظر إليها. لكن يعتبر بولتمان أن ليس لكلّ ذلك من علاقة مع الوحي، لأنّ تلك الإجابات كلّها لا تأخذ تاريخيّة الكائن البشريّ بالاعتبار عندما تتكلّم عن الوحي.

إجابة بولتمان: الإنسان ككائن تاريخيّ في الزمن

إنّ تصوّر الإنسان ككائن بشريّ يعني القول بأنّ الأخير ليس جزءًا من تاريخ العالم فحسب (كما يقول اللاهوت اللبرالي)، بل إنّ لديه أيضًا تاريخه الخاصّ الذي يتحقّق في وجوده، أي في لقاءاته التي تسائله دائمًا حول الطريقة التي يأتي بها من ماضيه إلى حاضره، والتي توجب قراره. ومسألة القرار محوريّة لمفهوم الإنسان ككائن تاريخيّ، وقد استعاره بولتمان من

زميله القديم، الفيلسوف مارتن هايدغر، الذي يعتبر كيان الإنسان وجودًا (*ex-sistere*)، أو "قدرة–وجود"، أو "قدرة–قرار". فبإمكانه أن يقرّر بين وجود غير أصيل، أي وجود ينطلق من أشياء العالم، ووجود أصيل، أي وجود نابع من فهم لذاته انطلاقًا من ذاته. لن يتبنّى بولتمان كامل هذه النظريّة الفلسفيّة، ولكنّه سيحتفظ بمفهوم الكائن البشريّ كـ"قدرة–قرار"، مع إعطائه إجابةً مختلفةً لمسألة أصالة الإنسان التي لا يمكنها أن تنبع، بالنسبة للإيمان، إلّا من الله.

إذًا، يحقّق الإنسان ذاتيّته الأصيلة في اللحظة التي تستدعي قراره، وهو في الواقع غير موجود خارج هذه اللحظة، وهي اقتلاع من الماضي، وانفتاح على المستقبل، ولقاء مع العالم، أو مع الله. ولذلك، يعتبر بولتمان أنّ فهم الوحي بحسب المفاهيم التي عرضناها يعني إنكار تاريخيّة الإنسان، لأنّ الوحي، بحسبها، لا يلاقي الإنسان في وجوده حيث هو دائمًا مدفوع إلى القرار، ما يجعله كائنًا تاريخيًّا. فلا يمكن للّقاء مع الله أن يكون حدثًا ماضيًا، لأنّ على هذا اللقاء أن يتحقّق في كلّ لحظة يلاقي بها الله الإنسان من المستقبل الإلهيّ. فإن كان الوحي محتوًى معرفيًّا بالإمكان فقهه نهائيًّا، فلا مكان لتاريخيّة الكائن البشريّ، لأنّ الوحي – انطلاقًا من هذا المنطق – جزء من الماضي. ولكنّ القول بتاريخيّة الكائن البشريّ يعني أنّه دائمًا مدفوع إلى أخذ قرار في لحظة لقائه مع الله الذي يأتيه دائمًا من المستقبل، وعلى هذا اللقاء، الذي لا يمكن القبض عليه نهائيًّا، أن يتجدّد دائمًا في لحظة القرار.

تُحدث هذه النظرة إلى الإنسان تحوّلًا جذريًّا على صعيد أسمى تحقيق له ككائن. فذلك التحقيق لن يعود في المعرفة، أو في ما هو لاعقلانيّ، أو في التاريخ، بل هو حالة من الإمكانيّات الموجودة في كلّ لحظة قرار. كما تُحدث هذه النظرة، كذلك، تحوّلًا في مفهوم الوحي. فعلاقة الإنسان بالوحي لن تعود متعلّقةً بالمعرفة أو غيرها من التصنيفات التي ذكرناها، بل علاقة قائمة على وجود يتطلّب القرار دائمًا. إذ لم تعد تتوقّف معرفة الله على قبول عقيدة، أو على التأمّل بالذات، أو على محاولة لفهم مسيرة التاريخ، بل على قرار قبول كلمة تُسائل الإنسان: "الإيمان المسيحيّ هو عمل إرادة وتصميم، قرار بالتحديد، أي إجابة على كلمة الله، وقبول دعوة الله – بغضّ النظر عن الطريقة التي يُلمس بها الإنسان من نداء الإيمان".

والقول بأنّ الإنسان كائن تاريخيّ يعني كذلك أنّه لا يوجد إلّا من خلال قراراته التي يأخذها في زمنيّته، أي انطلاقًا من ماضيه، ونحو مستقبله. والزمنيّة فئة من تاريخيّة الإنسان

تظهـر معارضـة بولتمان للمفاهيم التقليديّـة للوحي. ففي مذهب المثاليّة الرومانسـيّة، يفرّ الإنسـان من زمنيّته لملاقـاة الألوهة (*Deus in nobis*)، وفي مفهوم الوحي كعقيدة، ليس للزمنيّة أيّ أهمّيّة بوجه الحقائق الأزليّة التي تحلّ في عقل الإنسـان. أضف إلى ذلك أنّ زمنيّة الإنسـان ليسـت مجرى التاريخ العامّ ولا تطـوّره، بل زمنيّة تاريخه الخاصّ الذي هو جزء مـن تاريخ العالم. وعدم إيلاء أهمّيّة لزمنيّة الإنسـان يوازي، بالنسـبة لبولتمان، عدم اعتبار لتاريخيّته، ما يعني انتقاص المعطى الأساسـ من كيان الإنسـان، والتكلّم عن جانب ثانويّ منه فحسب، جانب يخفض من طبيعته كقدرة كيان.

يفرض القول بالزمنيّـة الماضي والحاضـر، أو اللحظة والمسـتقبل. تضـع تلك الفئات الإنسـان أمام مسـؤوليّة الماضي الذي منه يأتي، والمسـتقبل الذي يلقـاه ويدفعه إلى القرار. فالإنسـان، ككائن بشريّ، مسؤول عن صنع تاريخه، وكيانه الأصيل موجود دائمًا بوجهه في المستقبل الذي هو مدعوّ إلى ملاقاته عبر قراره. والإنسان في حالة صيرورة دائمة، بما أنّ أصالته تأتيه دائمًا من مسـتقبله، وهو يلاقيها. أمّا على صعيد الوحي، فهذه الزمنيّة تعني أنّ الإنسان هو دائمًا مسؤول عن ماضيه الخاطئ، وهو دائمًا الخاطئ المُسامَح. والله يأتيه دائمًا من المستقبل في حدث يسوع المسيح الأخرويّ، ما يدفع الإنسان الى أخذ قرار في وجه هذا الحدث، ليس مرّةً نهائيّةً، ولكن على الدوام، لأنّه بحالة صيرورة دائمة.

باختصار، يتميّز بولتمان عن المذاهب التي يعرضها، ويتصوّر الإنسان انطلاقًا من فلسفة هايدغر الوجوديّة، ما يولّد فهمًا جديدًا لمفهوم الوحي على ضوء تاريخيّة الإنسان في زمنيّته. فلا يكمن حدوث معرفة الله ولقاؤه، بالنسبة إلى بولتمان، إلّا في وجوديّة الإنسان، وإن كان من إمكانيّة للإنسـان لمعرفة الله، فهذه المعرفة وجوديّة تسـتدعي قرار الإنسان ومسؤوليّته. وعليه، لا يصير الإيمان المسـيحيّ إرثًا تاريخيًّا، أو محتوًى معرفيًّا، أو حقيقةً غير تاريخيّة، أو ميثولوجيّـةً، بل التزامًا دائمًا للإنسـان الذي لا ينى يقرّر وجـوده انطلاقًا من دعوة الله إليه، وهي تأتيه من مستقبله. فلا يمكن للمسيحيّ أن يكون مسيحيًّا بشكل نهائيّ، لأنّ عليه صنع المسيحيّة الحقّ دائمًا، في كلّ لحظة يقرّر فيها الردّ الإيجابيّ على دعوة الله له في وجوده.

مشكلة اللاهوت الطبيعيّ

تتعارض نظرة بولتمان الوجوديّـة في الوحي مع كلّ لاهوت طبيعيّ يقرّ بإمكانيّة معرفة الله مـن خلال الطبيعة. فيعتبر اللاهوتيّ أن لا سـبيل لمعرفة الله إلّا من خلال وحيه الذي يصيب

الإنسان في تاريخيّته وزمنيّته، وكلّ ما زاد عن ذلك ضلال.

يحدّد بولتمان مفهوم اللاهوت الطبيعيّ الكاثوليكيّ على أنّه معرفة الله المتاحة للإنسان من دون الوحي، ما يعني أنّه بإمكان الإنسان معرفة الله من خلال الخليقة، وهذا ما تمّ إقراره في المجمع الفاتيكانيّ الأوّل. ولكنّ هذا اللاهوت الطبيعيّ مستحيل بالنسبة إلى اللاهوت البروتستانتيّ[٥]، لأنّ الله لا يمكنه أن يكون مادّةً معرفيّةً، وإلّا لن يكون إلّا ظاهرةً من ظواهر هذا العالم. فالإيمان يعلّم أنّ الله هو فوق العالم، وأنّه لا يُدرَك إلّا بوحيه من خلال حدث يسوع المسيح. فالله، الآخر كلّيًّا والمتعالي، لا يُعرف إلّا عندما يعلن عن ذاته، كما تقول الآية: «إنّ الله ما رآه أحد قطّ، الابن الوحيد الذي في حضن الآبّ هو الذي أخبر عنه»[٦].

ولكن، وإن كان رفض بولتمان لكلّ شكل من أشكال اللاهوت الطبيعيّ واضحًا، فإنّ ذلك لا يزال يمثّل مشكلةً، لأنّه بإمكان غير المؤمن فهم الدعوة المسيحيّة، ولأنّ أتباع الأديان غير المسيحيّة يتكلّمون عن الله، ولأنّ الفلسفة تدّعي فهم الإيمان بالله كإمكانيّة إنسانيّة. لا يترك اللاهوتيّ الألماني هذه الإشكاليّات من دون إجابات.

ليس مصدر قابليّة غير المؤمن على فهم الدعوة المسيحيّة قدرةً طبيعيّةً يملكها الإنسان للانفتاح على الألوهة، بل فهم مسبق *Vorverständnis* يفسّر إمكانيّةً موجودةً عند كلّ إنسان لفهم أيّ دعوة توجّه إليه. فحتّى لو كانت هذه الدعوة جديدةً بالنسبة إليه، وحتّى لو كان يجهلها سابقًا، فبإمكانه فهمها، لأنّ كلّ فهم يمكن للإنسان الحصول عليه يرتكز على فهم آخر كان يملكه في السابق، حتّى لو كان معاكسًا للفهم الجديد. وعليه، عندما تبلغ دعوة الإيمان المسيحيّ الإنسان، فإنّه يقبلها انطلاقًا من مفهوم معيّن للوجود ولذاته، ويستبدل هذا المفهوم القديم بالمفهوم الجديد. وعلى الرغم من أنّ الدعوة المسيحيّة هي نقيض الواقع السابق، يبقى هذا الواقع السابق فهمًا مسبقًا يمكّن الإنسان من الحصول على فهم جديد[٧]. باختصار، لا يوجد لدى الإنسان أيّ قدرة طبيعيّة لمعرفة الله، بل إمكانيّة فهم للدعوة المسيحيّة مصدرها خبرته الوجوديّة.

أمّا الأديان والبشر الذين يدّعون الكلام عن الله خارجًا عن الدعوة المسيحيّة، فهم لا

(٥) يلاقي بولتمان بذلك تفكّرات اللاهوتيّ كارل بارت Karl Barth.

(٦) **يوحنّا** ١: ١٨.

(٧) لمزيد من التوضيح، يرتكز بولتمان على بولس عندما يتكلّم عن الإنسان القديم والإنسان الجديد. فحتّى لو حصل الإنسان القديم على مغفرة الله التي تجعل منه إنسانًا جديدًا، فالاستمراريّة بين الحالتَين واقع، والإنسان يبقى هو هو، مع الفارق أنّه [الإنسان] مُبرَّر.

يتكلّمون عن الإله الحقيقيّ بالنسبة إلى بولتمان. فكلّ ديانة خارجة عن الإيمان بدعوة الله في المسيح هي ديانة غائصة في اللاإيمان. فالإيمان لا يرفض، بالمبدإ، فكرة كشف الله عن ذاته في كلّ الأديان والبشر الأتقياء. ولكن عمّن يتكلّمون عندما يتحدّثون عن الله؟ يعتمد بولتمان على **الرسالة الثانية الى أهل قورنتس ٤ : ٤**[٨] ليقول إنّهم يتكلّمون عن العالم، وعن ذواتهم، ظانّين الكلام عن الله. فالإنسان يتكلّم عن الله مسقطًا عليه ذات رغباته وهمومه، وقلقه من إشكاليّة الشرّ في العالم، لأنّه يبحث عن ضامن أخلاقيّ لحياته، وإلى غير ذلك. ويمكنه التكلّم عن الله كالسبب الأوّل، ولكن ما يدفعه إلى ذلك مجرّد فضول فكريّ. كما يمكنه التحدّث عن الله من زاوية التقوى، أو اللاعقلانيّة، ولكنّه يتكلّم بذلك عن عدم قدرته على حلّ لغز وجوده. ولذلك، لا يمكن اعتبار كلّ هذه الخطابات حول الله كلاهوت طبيعيّ، لأنّها لا تتكلّم عن الإله الحقيقيّ، حتّى لو تشابهت مع بعض إجابات الإيمان، بل تتكلّم عن الإنسان وإسقاط ذاته في وجوده. فلا توجد أيّ علاقة بين أيّ معرفة افتراضيّة لله والإيمان المسيحيّ، وإلّا اعتُبر هذا الأخير جزءًا من التاريخ الإنسانيّ، ومن تاريخ الأديان. ولكن لا يعني القول بانتفاء العلاقة بين معطى الأديان حول معرفة الله ومعطى الإيمان استحالةَ معرفة الله خارجًا عن الإيمان، لأنّ الإنسان يمتلك سؤال الله، ويمكنه السؤال عنه بحكم وجوده الذي يدفعه إلى معرفته. فعندما يختبر الإنسان محدوديّته في الوجود، يطرح على ذاته سؤال ما يتخطّى هذه الحدود، وهنا سؤال الله. ولكنّ السؤال ليس جوابًا، ويمكن فقط للإيمان بإله يسوع المسيح – وهو ليس معطًى من هذا العالم أو إسقاط ذات إنسانيّ – أن يكون الإجابة الصحيحة لسؤال الإنسان الوجوديّ حول الله.

أفلا تشكّل الفلسفة بذلك، وهي تدّعي القدرة على فهم الإيمان كإمكانيّة إنسانيّة، حجّةً للإقرار بمبدإ اللاهوت الطبيعيّ؟ يعتبر بولتمان أنّ الفلسفة واللاهوت كليهما يتناولان مسألة الموجود بشكل علميّ. وعليه، فالإنسان، أكان مؤمنًا أو غير مؤمن، هو دائمًا موضوع تحرّ وتأويل من قبل الفلسفة. ولكنّ الفارق بين الاثنين يكمن في أنّ الفلسفة، عند حديثها عن التبرير[٩]، تتكلّم عن الحالة الإنسانيّة ومحدوديّتها. في حين يتكلّم اللاهوت عن مغفرة الخطايا. وبذلك، تتكلّم الفلسفة عن مفهوم التبرير، في حين يتحدّث اللاهوت عن حدث التبرير، وهو المسيح. ويتابع بولتمان معتبرًا أنّ هذا الفارق غير كاف لفهم دقائق الأمور،

(٨) «غير المؤمنين الذين أعمى بصائرهم إله هذه الدنيا، لئلّا يبصروا نور بشارة مجد المسيح، وهو صورة الله».

(٩) التبرير، في عرف بولتمان، هو نتيجة لقرار الإنسان بالردّ إيجابًا على دعوة الله إليه في الوحي.

لاسيّما وأنّ اللاهوت بحاجة إلى الفلسفة في تفكّره وخطابه؛ ولذلك يضيف قائلًا إنّ الفلسفة بإمكانها ملاحظة الإيمان وعدمه بما هي ظواهر تخصّ الإنسان وإمكانيّاته، ولكنّ إجابة اللاهوت للفلسفة هي أنّ عدم الإيمان ليس بإمكانيّة، بل حالة أساسيّة عامّة للموجود الإنسانيّ. فحتّى لو لاحظت الفلسفة قرارًا وجوديًّا في اتّجاه الإيمان، فهي عاجزة عن فهم الحدث الإيمانيّ الذي لا يُدرك إلّا بواسطة الإيمان، لأنّه ليس بظاهرة من الموجود، بل حدث أخرويّ. وباختصار، يتوقّف فهم الفلسفة للإيمان على إدراك إمكانيّة قرار لدى الإنسان، ويعدّ هذا الإدراك وجوديًّا، وليس في أيّ حال كيانيّ، أي إنّ الفلسفة تلاحظ تغيّرًا وجوديًّا نظرًا إلى قرار الإنسان، ولكنّها عاجزة عن فقه تحوّل كيان الإنسان من كائن خاطئ إلى كائن مُبرّر. إذًا، لا يمكن اعتبار الفلسفة حجّةً لوجود لاهوت طبيعيّ.

على الرغم من كلّ هذا الدحض لمقالة اللاهوت الطبيعيّ، يذعن بولتمان لوجود شكل من اللاهوت الطبيعيّ، وهو تأويل الوجود السابق للإيمان انطلاقًا من الإيمان. وهذا نوع من اللاهوت الطبيعيّ لأنّه يدرك وجود الإنسان الطبيعيّ كوجود خاطئ يمكنه التبرير في حال آمن. ولكنّ هذا النوع من اللاهوت الطبيعيّ ممكن انطلاقًا من عالم الإيمان فحسب.

معرفة اللّه الوجوديّة

على الرغم من عدم إمكانيّة معرفة الله خارجًا عن وحيه، يتكلّم الكثير من البشر غير المؤمنين بيسوع المسيح عن الله، ما يدفع ببولتمان إلى الحديث عن نوع من معرفة لله تتخطّى المسيحيّة. ولكنّه يحذّر سريعًا قارئه قائلًا إنّ تلك المعرفة هي تساؤل فحسب، لا يمكن اعتبارها إجابةً بتاتًا، وهنا محور تفكّر بولتمان حول المسألة. أجل، ثمّ معرفة لله ممكنة خارجًا عن يسوع المسيح، ولكنّ هذه المعرفة مصدرها وجود الإنسان، وهي ليست الإجابة على وحي الله في المسيح، فيجب التمييز بين معرفة وأخرى.

وبغية تفسير هذا النوع من المعرفة التي يستقيها الإنسان من وجوده، يطرح بولتمان سؤال معرفة ما يعنيه الإنسان عندما يتكلّم عن الله، ويحاول الإجابة منطلقًا من مارتن لوتر الذي يقول إنّ الله هو القدرة التي نضع فيها قلبنا، والتي نعود إليها في احتياجاتنا. ويمكن لهذه القدرة أن تكون المال، أو المعرفة، أو الصداقة، أو الشرف، وإلى غير ذلك. وفي العالم، هذه القدرة ليست بقدرة خاصّة، بل هي القدرة الكلّيّة، الجبروت، التي تحتضن القدرات الخاصّة كلّها. وعليه، فإنّ فكرة الجبروت هي جزء من فكرة الله. ومن هذه الخلاصة

الأولى، ينتقل اللاهوتيّ الألمانيّ إلى خلاصة ثانية مفادها أنّ هذا الإله الكلّيّ القدرة هو أيضًا قـدرة متطلّبة، لا تتطلّب المجد فحسـب، بل الحـقّ والأخلاق كذلك، ما يعنـي أنّ الله هو القدّوس، والحاكم الذي يستوجب العدل. ولذلك، فإنّ فكرة القداسة هي جزء من فكرة الله. ويستخلص بولتمان من الفكرة الثانية فكرةً ثالثةً مفادها أنّه بما أنّ الله قدّوس، أي منزّه عـن العالم، فهو أزليّ. ولهذا، فإنّ فكرة الأزليّة جزء من فكرة الله. وباختصار، عندما يتكلّم الإنسـان عن الله، يتكلّم عنه ككائن كلّيّ القدرة، قدّوس وأزليّ. ولكن كيف يبلغ الإنسان إلى تلك الخلاصات خارجًا عن الوحي؟ من خلال وجوده!

يختـبر الإنسـان ضعفه في وجوده، وهو يتوق إلى أن يكـون كلّيّ القدرة، ولكنّ عجزه عـن ذلك يجعله يتكلّـم عن إله كلّيّ القـدرة، إله يصنعه على صورة يريدهـا له. وهو يقوم بذلـك لأنّه يخضع دائمًا إلى قدرات مختلفة، كقدرات التاريخ، والطبيعة، والقدر، والموت، مـا يجعـل حياته قلقةً ومظلمـةً إن لم يتكلّم عن قدرة فائقة تتخطّـى كلّ القدرات الأخرى. والإنسـان بحاجة إلى هذه القدرة، إن كانت العِرق، أو العقل، أو أيّ قدرة تتخطّى قدرات العالم، لأنّه يأمل، في مواجهة واقع العالم، الحصول على حياة أفضل.

ويختبر الإنسـان واجب الكيـان في وجوده، لأنّه يعلم أنّه لم يبلـغ ما يجب عليه كونه، ولذلـك يتكلّم عن الله كقدّوس، ومتطلّب، وقاض. والإنسـان الصادق يتوق، بحسـب بولتمـان، إلى أن يصحّـح أخطاء ماضيه، وهو يعتبر أنّ تحقيـق ذاته لم يتمّ في حاضره، بل هو شيء عليه أن يصبحه، لأنّه سائر على سبيل أصالته التي هي دائمًا أمامه. فالإنسان يتكلّم عن الله القدّوس المتطلّب، لأنّه يختبر عدم كماله وتحقيق واجبه، ولأنّه بحالة بحث عن الذات. ولكنّ معرفة الله هذه ليست سوى إسقاط لذات طموحاته الأخلاقيّة التي يجسّدها في مثال يبلّغه إلى الصراط القويم، مثال يسمّيه الله القدّوس.

ويختبر الإنسـان، أخيرًا، هشاشـة وجـوده، ومحدوديّته الزمنيّة، ولذلـك يتكلّم عن الله كأزليّ. ولكنّ الله يظهر هنا أيضًا كإسـقاط لذاته. فوضع الإنسان اللاكامل يدفعه إلى التكلّم عن الكمال حيث الحياة بلا موت، والنور بلا ظلمة، وهو شيء لا يملكه في هذه الحياة حيث الولادة والموت. ولذلك يتسـاءل الإنسـان عن هذه القوّة التي تحطّم الموت وتعطي الحياة، ويحاول البلوغ إليها، هاربًا من الدنيا، بواسـطة التأمّل الفكريّ الذي يخوّله المشـاركة في مملكة الأفكار الأزليّة، أو بواسطة حياة التقشّف، أو الاختبار الصوفيّ.

وخلاصة القول إنّ الإنسان، عندما يتكلّم عن جبروت الله، وقدسيّته، وأزليّته، بمعزل عن

الوحي، لا يتكلّم عن الله، بل عن ذاته. فله في وجوده معرفة معيّنة عن الله، لا يعتبرها الإيمان المسيحيّ معرفةً حقيقيّةً، بل كالسؤال عن الله. ولكنّ الوحي هو جزء من حياة الإنسان، بما أنّه يختبره في جوده، وبما أنّ وجوده يدفعه إلى السؤال عن الله. فالتكلّم عن معرفة الله الوجوديّة تلازم تاريخيّة الكائن البشريّ، وتحدث تغيّرًا في التفكّر حول مسألة الوحي، لأنّ تدخّل الله يعطي الإنسان إجابةً عن سؤاله، ويدفعه، ككائن تاريخيّ، إلى القرار. ويجيب الإنسان إلى دعوة الله إليه في وجوده، لا بواسطة عقله، أو أحاسيسه، أو تصوّفه، بل من خلال إرادته.

لا يرفض الإيمان المسيحيّ، إذًا، سؤال الله الوجوديّ، ولكنّه يعلن قدرته على دخول أعماقه وإيضاحه، مع تأكيده على أنّ الإجابات غير المسيحيّة كلّها أوهام. فوجهة نظر الإيمان تعلن أنّ فكرة جبروت الله في المسيحيّة مختلفة عمّا تقوله معرفة الله الوجوديّة، لأنّ قدرة الله الكلّيّة التي يلقاها المؤمن ليست إسقاطًا لذاته ينطلق من ضعفه ككائن، ولا هي جبروت يمكنه إيجاده في العالم، بل في الإيمان فحسب. ولا ريب أنّ وجه الله القدّوس الذي يكشفه الوحي مغاير عمّا يختبره الإنسان من حاجة أخلاقيّة في وجوده، لأنّ الإيمان المسيحيّ لا يعتبر صوت الضمير كصوت الله، وذلك لا يعني أبدًا احتقارًا للوعي الأخلاقيّ الطبيعيّ. ولكن، عندما يعترف المؤمن بأنّ الله قدّوس، فهو يقرّ بأنّ الإنسان خاطئ، وهذا أمر لا يبلّغه إلّا الوحي. ولا شكّ في أنّ أزليّة الله التي يكشفها الوحي مختلفة أيضًا عمّا تقوله معرفة الله الوجوديّة، لأنّ الإيمان المسيحيّ يعلن أنّ الإنسان الذي يلاحظ حدوده وموته لا يتكلّم عن أزليّة الله الحقيقيّة، بل عن توقه الخاصّ إلى الأزليّة، وهو هروب من الزمنيّة والتاريخيّة. فأزليّة الله تأتي إلى الإنسان في الوحي، وهي ليست هروبًا من العالم لأنّها تلاقيه في وجوده.

وعليه، يظهر كلّ من جبروت الله، وقدسيّته، وأزليّته، بحسب الإيمان، كواقع نهيويّ، ولا كواقع طبيعيّ، ما يمنع الإنسان البلوغ إليهم من دون الوحي. إذ تظهر قدرة الله الكلّيّة كقدرة لا مثيل لها في العالم على مغفرة الخطايا. وتُظهر قدسيّة الله أنّ حدود الإنسان خطيئته، وهي رفض الله، ولذلك تدين هذه القدسيّة الإنسان، وتحرّره في الآن نفسه عبر المغفرة. وأمّا أزليّة الله، فهي تجعل من حياة المؤمن حياةً نهيويّةً، ما يعطي الوجود المسيحيّ طابع الأزليّة، فلا يستخرج المؤمن وجوده من العالم المخلوق، بل من أزليّة الله التي يلقاها في الوحي من خلال يسوع المسيح.

وهنا يظهر التباين بين فكر بولتمان وفكر هايدغر. ففي حين يعتبر الفيلسوف أنّ أصالة الإنسان تنبع من أخذه قراراته انطلاقًا من ذاته، لا انطلاقًا من العالم، يجيب بولتمان قائلًا بأنّه حتّى القرارات التي يأخذها الإنسان انطلاقًا من ذاته لا تجعله أصيلًا، لأنّ ذات الإنسان جزء من العالم. فلا يبلغ الإنسان أصالته بالنسبة إلى الإيمان إلّا عندما يأخذ قراره انطلاقًا من الله. وعليه، يكتشف المؤمن من خلال الوحي قدرة الله الكلّيّة، وقدسيّته، وأزليّته الأصيلة، بحيث يضحى كلّ وجوده وجودًا نهيويًّا. فهو يبقى في العالم مع أنّه ليس جزءًا منه.

يقرّ بولتمان أنّه عاجز عن إثبات هذه الوحي لأحد، وأنّ على الإنسان الطبيعيّ، إن أراد فهمه، أن يكفّ عن اعتبار معرفة الله الوجوديّة كجواب. أمّا السؤال المحوريّ للّاهوتيّ الألمانيّ فهو: إن كان وحي الله فعلًا حدثًا، فهل يقبل الإنسان الطبيعيّ أن يتخلّى عن معرفته الزائفة عن الله، ليسمح بكشف وجوده الخاطئ، أو هل يفضّل التعامي عبر اعتبار الأوهام التي يبنيها انطلاقًا من ذاته كوحي الله له؟

إذًا، لا معرفة أصيلة لله خارجًا عن وحي الله الذي يلاقي الإنسان في وجوده، ما يجعل من هذا الوحي حدثًا.

الوحي كحدث إيمانيّ

الوحي إذًا ليس بمضمون معرفيّ، أو بإحساس، أو بتقوى، ومعرفة الله غير ممكنة عبر التاريخ والطبيعة. فوسيلة معرفة الله الوحيدة هي من خلال وحيه بيسوع المسيح، في وجوديّة الكائن الإنسانيّ وزمنيّته، ما يجعل من الوحي حدثًا إيمانيًّا نهيويًّا، يبطل الموت، ويعطي الحياة، كما يعلّم كتاب **العهد الجديد**.

يبحث بولتمان عن تعريف صحيح للوحي في **العهد الجديد** علّه يصحّح معرفة الإنسان المسبقة، وهي «معرفة لا تعرف nichtwissendes Wissen»، بما أنّ فكرتها عن الوحي غير صائبة. ويعلّم كتاب **العهد الجديد** أنّه لا يمكن للإنسان أن يكون مصدر حدث الوحي، لأنّ الوحي عمل من الله يسائل الإنسان، عمل قوامه يسوع المسيح. ولا يمكن رؤية هذا الحدث إلّا من خلال الإيمان، وهو يكوّن مع الوحي حلقةً مقفلةً، بحيث لا يمكن التكلّم عن أحدهما من دون التكلّم عن الآخر. والإيمان موقف إنسانيّ من ناحية إجابة الإنسان على دعوة الله فحسب، ولكنّ الإنسان عاجز عن الإيمان إن لم يدْعُه الله، ويعطه الإيمان، ويخلقه في قلبه، لا كشيء طبيعيّ، بل كأعجوبة. فالإنسان الطبيعيّ لا يمكن أن يكون مؤمنًا، لأنّ

الإيمان بالنسبة إليه إمكانيّة يمكنه الحصول عليها إنّ قرّر الاستجابة إلى دعوة الله له على نحو إيجابيّ، وهي على الرغم من بلوغها إليه عبر الوعظ، أي عبر كلام بشريّ، ليست جزءًا من هذا العالم، بل نهيويّة. والإيمان ليس بموقف عقليّ، بل هو حدث يحياه الإنسان في وجوده، حيث يصغي إلى الوحي، وإلى الكلمة التي تلقيه أمام إمكانيّة المستقبل. ولكنّ حياة الإيمان هذه لا تخلو من التوتّر، لأنّ المؤمن يعيش في العالم على الرغم من أنّه ليس من العالم.

الإيمان والوحي مرتبطان في فكر بولتمان إلى حدّ يخال قارئه أنّه يتكلّم عن الشيء نفسه. وفي الواقع، هما يعتمدان على بعضهما إلى حدّ لا يمكن للواحد أن يوجد من دون الآخر. فإمكانيّة الإيمان موجودة في الوحي، وإمكانيّة قبول الوحي موجودة في الإيمان. وبالتالي، فإنّ الوحي لم يكن ممكنًا للبشر إلّا عندما أرسل الله ابنه، وهو إمكانيّة الإيمان الحقّ الوحيدة.

والحديث عن الإيمان غير ممكن من دون الكلام عن الرجاء، لأنّ الحياة المعطاة للمؤمن عبر الوحي لا توجد في حاضره إلّا كمستقبل. فهو يملكها في الإيمان لا غير، وليس في الملء، وبذلك هي موضوع رجاء، لأنّ المؤمن لا يحصل على ملئها إلّا عند قيامة الأموات (ولذلك هي نهيويّة). وهي حاضرة بفعل الوحي، والإيمان، وقيامة المسيح، ولكنّها غائبة بفعل وجود الإنسان في العالم وانصياعه إلى قوانينه. ولذلك، بما أنّ الإيمان المسيحيّ ليس بواقع واضح في العالم، يعتبر بولتمان أنّه على المؤمن أن يقبض عليه بشكل متواصل عبر قراراته، لأنّه ككائن موجود على الدوام في واقع دينامكيّ بوجه أوضاع جديدة، وبوجه عبثيّة التاريخ عليه دائمًا اتّخاذ قرار الإيمان. فالمسيحيّ مدعوّ لأن يكون مسيحيًّا في كلّ حالة وجود جديدة، لأنّ الله يسائله دائمًا عبر مستقبله.

خلاصة

ختام القول في هذا المقال إنّ بولتمان يعتبر أنّ الله يعلن عن ذاته للإنسان بواسطة يسوع المسيح، وأنّه لا يُرى إلّا من خلال هذا الوحي الذي يبلغ الإنسان كحدث، كدعوة من خلال البشارة. وبما أنّ الإنسان كائن تاريخيّ، فهو مدعوّ إلى القرار بوجه تلك الكلمة الموجّهة إليه. فإمّا أن يقرّر اتّباعها، وهو يعطي بذلك ردًّا إيجابيًّا لدعوة الله له، ما يبرّره ويجعله أصيلًا، وإمّا يقرّر رفضها، فيبقى في الخطيئة، أي الوجود انطلاقًا من العالم، وهو وجود غير أصيل. وفحوى القول، إنّ محتوى الوحي بالنسبة إلى بولتمان هو الله الذي يظهر